الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٧ —

الديانة المصرية — الحياة الآخرة

اعتقد المصريون منذ أقدم عصورهم بخلود الروح وبأن هناك حياة آخرة يجازى فيها المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته . والمنطق الذى استندوا إليه فى هذه العقيدة ، هو أن هذه الحياة الدنيا مزيج من الخيرات والشرور ، وأن المشاهد أن هذه الفترة القصيرة التى يعيشها الانسان على الأرض ، ليست جديرة بتحقيق مكافآت الأخيار ، ولا عقوبات الأشرار . وإذن فالمنطق يقفنا أمام أمرين لا ثالث لهما ، وهما : إما أن تكون هناك حياة أخرى يوفى فيها الأخيار والأشرار جزاء أعمالهم فى دقة وعدالة ، وإما أن ينتهى كل شيء بمجرد انتهاء هذه الحياة . وفى هذه الحالة الأخيرة لا يتحقق تقدير الفضيلة والرذيلة ، ولا يمتاز الخير عن الشر بأية ميزة . وبذلك تنتفى عن الإله صفة العدالة ، ومتى انتفت عنه هذه الصفة لحقه النقص ، ومتى لحقه النقص فقد انهارت ألوهيته من أساسها ، وإذن فالحياة الأخرى من لوازم الألوهية نفسها

أما طريق معرفة الخير من الشرير فهى أن يؤتى بأعمال كل منهما الدنيوية المقيدة فى سجل أمين لم يدع منها كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ، ثم يجلس المسئول أمام محكمة « أوزيريس » الذى نكتفى أن نسوق إليك فى وصفها نص ما كتبه الأستاذ « بريستيد » : « وتتكون محكمة أوزيريس فى عقيدة القوم من اثنين وأربعين قاضياً يجلسون أمام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسما من أقسام مصر ، فإذا دخل المتوفى أمام المحكمة وأنكر أمام كل قاض إثماً من آثامه ، يوزن قلبه فى ميزان مقابل ريشة العدالة ، للتأكد من صدق قوله . أما الآثام التى يتبرأ منها الميت أمام محكمة أوزيريس فهى بعينها الآثام المستهجنة فى عهدنا هذا . وهاك بياناً موجزاً لتلك الآثام : السرقة ، والقتل ، والاختلاس (وبالأخص السلب) ، والكذب ، والخداع ، وشهادة الزور ، والرياء والتنابذ بالألقاب والتجسس ، وعدم الاعتدال فى الأمور الجنسية ، وامتهان كرامة المعبودات أو الأموات كالكفر بهم ، وسرقة أمتعة الموتى . ومن هذه القائمة يستدل على عظم الرادع النفسى عند المصريين وقتئذ استنكاراً للمنكرات . وعليه فالمصريون هم أول قوم اعتقدوا ترتب الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية . ويرجع هذا الاعتقاد فى الحقيقة إلى المملكة القديمة . والغريب أن هذه العقيدة انحصرت فى المصريين أكثر من ألف سنة فى حين أن البابليين والاسرائيليين اعتقدوا أن انتقال الموتى عموماً إلى سقر المعرفة باسم « شول » ، واعتقد المصريون أن الأموات الذين تحكم عليهم محكمة أوزريس بالاجرام يعرضون للجوع والعطش ويحجزون فى أماكن مظلمة لا يبصرون فيها ضوء الشمس . وفى المحكمة طريق أخرى للقصاص ، منها حيوان بشع له رأس تمساح ومقدم أسد ومؤخر دب البحر يفترس المجرمين الآثمين . وأخذت آراء القوم فى عهد المملكة الوسطى تحوم حول تطهير النفس من المعاصى والمظاهر التماساً للبراءة بعد الوفاة وتجنباً للعقاب الأليم ، فأصبحت ترى الكثير من نقوش شواهد القبور شديدة الشبه بما ألمعنا إليه فى عهد المملكة القديمة ، وهى تتلخص فى أن الميت يطعم الجوعان ويروى الظمآن ويكسو العريان وينقل فى سفينته من ليس له سفينة . وجاء على بعض الشواهد أن المتوفى كان أبا اليتيم وزوج الأرملة وملجأ الذى لا ملجأ له مما أشرنا إليه حين تكلمنا على كرم وسخاء حكام الأقسام والشخص الذى تبرئه الحكمة أوزيريس تلقبه بالرجل الطاهر العادل أو صادق القول أو المنتصر » (١)

فإذا فرغ « توت » — وهو الذى تصوره لنا الآثار حاملا الميزان فى يده — من مهمته أمر بهذا المسئول فيساق إلى ذلك الصراط المخوف الذى مد فوق الجحيم والذى إذا اجتازه

(١) راجع صفحتى ١١٢ و١١٣ من كتاب تاريخ مصر من أقدم عصورها للأستاذ بريستيد .

الشخص نجا وارتقى إلى جوار الآلهة والفراعنة الأبرار ، وإذا هوى من فوقه سقط فى واد سحيق ممتلىء بالأفاعى والحيات التى تتولى تعذيبه بقسوة حتى ينال قسطه من الجزاء

ومن الغريب أن المصريين مع إيمانهم بهذه العدالة الصارمة فى الحساب ووزن الأعمال كانوا يعتقدون أن تلاوة الرقى والتعاويذ وكتابتها على تابوت الميت أو على حوائط قبره تستطيع أن تنفعه أمام محكمة أوزيريس فتزيد فى نعيمه وتخفف من عذابه ، وهذا هو معنى قول المحدثين : « الرحمة فوق العدل » . وقد كتبت هذه التعاويذ فى كتاب « الموتى » وكتاب توت الذى ألمعنا إليه آنفا .

عقائد وطقوس دينية

اعتقد المصريون - كما أسلفنا - بالبعث والحشر والحساب على الأعمال والميزان والصراط والنعيم والجحيم ، وآمنوا كذلك بأن هذا النعيم درجات ، أدناها المتع المادية ، وأعلاها الذهاب إلى جوار الآلهة أو الصعود بوساطة السلم الإلهى من مملكة الموتى إلى مملكة « رع » حيث يقيم الصالحون والمقربون مقاماً أبدياً لا مرض فيه ولا تعب ولا موت ولا فناء . واعتقدوا أن فى الجحيم كذلك درجات بعضها خفيف وبعضها قاس ، وأن بها ثعابين وحيات وتنينات تتولى تعذيب الآثمين بقدر ما يرسم لها إله الجحيم .

هذا كله فى الآخرة ، أما فى الدنيا فمن طقوسهم الدينية أنه إذا مات الميت يجب أن يغسل بالماء النقى وأن يكفن ويدفن بعد أن يلقنه الكاهن ما كانوا يسمونه بالرقى المنجية التى تحميه فى القبر من الأرواح الشريرة وتكفل له فى الآخرة رحمة الآلهة ، وأن تكتب تعاويذ « توت » على تابوته وجدران قبره إن كان من ذوى الحيثيات كأن يكون ملكا أو أميراً أو كاهناً أو وزيراً أو موظفاً كبيراً أو أديباً أو طبيباً مثلا ، أما إن كان من أبناء الطبقات الدنيا ، فان هذه التعاويذ تكتب على كفنه أو فى ورقة بردية تدفن معه .

ومن هذه الطقوس أيضاً تضحية الحيوانات على قبر الميت ووضع بعض لحومها مع الخبز والماء والفاكهة والنبيذ فى داخل القبر ، وأن يتولى تقديم هذه الضحايا أحد الكهنة ، لينقبلها أوزيريس فيضمن أهل الميت بهذا القبول لمتوفاهم الرحمة والغفران (١)

رأى بعض الباحثين الغربيين أن هذه العقائد الفرعونية من : بعث وحشر ووزن وثواب وعقاب ونعيم ، بعضه مادى وبعضه معنوى ، وعذاب يتفاوت بتفاوت درجات الآثام والشرور ، وأن تلك الطقوس الوثنية من : غسل الميت وتكفينه وتلقينه ودفنه ونحر الضحايا بمناسبة موته ، كل هذا يوجد بحذافيره فى بعض الديانات التى تدعى لنفسها السماوية فرموا هذه الديانات الأخيرة باستقائها عقائدها وطقوسها من تلك الديانة الوثنية لا من عند الله كما تدعى

ولست أدرى كيف يستسيغ أولئك الباحثون هذا المنطق العجيب مع اعترافهم بالجهل التام للأصول الأولية فى الديانة المصرية ؛ وما المانع من أن يكون مصدر هذه الأصول المجهولة لديهم هو : السماء ، وأن يكون التوثن والتعدد عارضين لها بعد التأليه والتوحيد ؟ وفى هذه الحالة يكون من الطبيعى أن تتفق مع الديانات السماوية فى جميع العقائد والطقوس التى لم ينلها التحريف ؛ ثم ما المانع كذلك من أن تكون تلك الطقوس مستحدثة فى الديانة المصرية لا يصعد مبدؤها على سلم التاريخ إلا إلى العهود التى اختلط فيها المصريون بالساميين واقتبسوا منهم بعض طقوسهم الدينية ؟ هذه كلها احتمالات جائزة الوقوع ، ولكن الذى لاشك فيه هو أن اتفاق ديانة وثنية مع أخرى سماوية لا يقوم برهانا على أخذ الثانية من الأولى ، ولا يصح الإستناد إليه فى الحيلولة بينها وبين سماويتها

الأعمال

آمن المصريون — كما قدمنا — منذ عهود تقصر عن إدراكها مجهودات التاريخ بأن لهذه الأكوان منشئا أو منشئين خلقوها ونظموها وهم يتولون تصريف شؤونها بحكمة واقتدار وعدالة وإنصاف . ولأمر ما ، اقتنع المصريون منذ أقدم عصورهم بأن هؤلاء الآلهة المتصرفين فى الأكوان اختاروا فى مبدأ الدنيا عرش مصر واتخذوه مقراً لهم يصدرون من فوقه أحكامهم وأوامرهم النافذة التى لا يجرؤ أى فرد من أفراد

(١) راجع رسالتنا « الآثار الحية لمصر القديمة » صفحات ٢٣٨ إلى ٢٤٤ و « كتاب القسس المصرية » صفحة ١٠

الوجود على التمرد عليها أو عدم الانصياع لها ؛ ثم عن لهؤلاء الآلهة أن يغادروا عرش مصر الى عرش السماء ففعلوا ، ولكن بعد أن استخلفوا على هذا العرش العزيز أبناءهم وأحفادهم الفراعنة العظماء وزودوهم بكل ما يحتاجون إليه فى حكمهم للبلاد وسياستهم للدولة وقيادتهم لجميع أنحاء النظم الإجتماعية والأخلاقية التى لا تسير بالبلاد إلا الى التقدم والعمران ؛ وأن أولئك الآلهة سيلحظون الحاكمين والمحكومين بعنايتهم ويكلؤونهم بعين رعايتهم ماداموا يقومون بواجباتهم نحو أولئك الآلهة المحسنين . وكان هذا القيام بالواجب يتلخص فى الشعائر الدينية وفى الإتصاف بالفضائل الأخلاقية ، وأولها الولاء للعرش والعدالة والصدق والأمانة والرحمة والإحسان وأشباهها

ولا ريب أن هذه الأسطورة — على بطلانها — كانت أقوى العوامل وأهم الأسباب فى رقى مصر العمرانى ، وتماسكها الإجتماعى وجلالها السياسى ، وسموها الأخلاقى ، واطراد تقدمها فى العلم والأدب والفنون الجميلة والصناعات النافعة .

ومن الطبيعى أن الأمة التى تعتقد أن نجاحها فى الدنيا وفوزها فى الآخرة مترتبان على الفضائل لا تألو جهداً فى أن تكون أمة فاضلة خيِّرة ، وهذا هو الذى حدث بالفعل ، فقد انتشرت الفضائل فى وادى النيل انتشاراً قويا وعظم الخاصة والعامة معتنقيها وكافأهم الملوك على حسن سلوكهم بجلائل النعم وأعاظم المنح كما ضرب على الرذائل والشرور بأيد من حديد ، وأصبح أفراد هذه الأمة جميعهم يفخرون بالفضائل ويتبرأون من الرذائل لافرق فى ذلك بين فرعون على جلاله وبين الفلاح الصغير أو العامل الحقير . وإليك شيئا من نصوص تصوير هذا العصر الغابر ، ومقدار تمسكه بالفضائل وأثر ذلك التمسك فى حياته : « واعتقد القوم أن الوصول إلى حقول الخيرات الأخروية يكون بالإهتمام بالشعائر الدينية والاعتناء بها ، وبتوالى الأيام اعتقد الناس أن النعيم الأخروى يكافأ به من يحافظ على طهارة الذمة والشرف والأعمال الصالحة فى الدنيا . من ذلك ماورد فى مقبرة أحد أمراء الأسرة الخامسة مترجماً : « لقد شيدت مقبرتى بغاية العدل والحق فلا شىء فيها يستحقه غيرى ، وأنا لم أوذ أى شخص » . وماورد أيضاً من النقوش على جدر مقبرة لأحد أبناء تلك العصور مترجماً : « أنا لم أعاقب قط فى حياتى أمام رجال الحكومة ولم أسرق شيئاً من غيرى ؛ بل فعلت كل مايرضى غيرى » . ولم تقتصر نقوش مقابر تلك العصور على إنكار السيئات ، بل شملت أيضا فعل الخيرات كما ورد على جدار مقبرة وجيه فى الأسرة الخامسة مترجماً : « كنت أقدم الخبز لفقراء إقليمى ، وأكسو عراته ، ولم أوذ أحداً طمعاً فى أملاكه حتى اشتكانى إلى معبود بلده ، ولم أسمح لضعيف أن يخشى بأس قوى فيتظلم من ذلك للإله » .(١)

ومما ورد فى موضع آخر تعزيزاً لما قدمناه مايلى : « ومنه يتضح أن القوم وقتئذ أخذوا يعتقدون بوجود محاكمة فى الآخرة أمام (أوزيريس) وأن هذه العقيدة أحدثت تأثيراً أدبيا عظيما فى نفوس المصريين ، فإنهم وإن كانوا حقيقة منذ قديم الزمن ذوى ضمائر ونفوس رادعة إلا أنهم كانوا فى احتياج إلى زجر قوى كالوارد فى عقيدة أوزيريس . لذلك نشاهد بين نقوش دهاليز أهرام أمراء الأسرتين : الخامسة والسادسة تحذير كل من يستولى على مقابرهم بأنه سيحاكم على أفعاله أمام المعبود الكبير ، كما ورد فى مقبرة أخرى مايشيره إلى تجنب الكذب كلية رغبة فى رضاء المعبود وقت الحساب . كل هذه الحقائق وجدت مدونة بين أقدم نصوص الموتى المعروفة الآن بمصر »(٢)

ومما لا شك فيه أن اتصاف المصريين بالفضائل والخيرات يرجع إلى أوائل عهدهم بالتعقل والتفكير . ونحن بهذه المناسبة لا نوافق الأستاذ « بريستيد » على قوله : إن الواجب الدينى كان فى أول أمره مقصوراً على الشعائر ثم تحول بعد ذلك إلى تناول الفضائل . فهذا القول غير صحيح البتة ، لأن المصريين لم يعرفوا الحياة يوماً واحداً بدون اعتناق الفضائل والأخلاق وإيمانهم بأنها أوامر الآلهة كانوا ينشرونها بين الناس إبان اتخاذهم عرش مصر مقراً ، أى قبل صعودهم إلى السماء فى الأزمان السحيقة . ولو كان قول بريستيد صحيحاً للزم أن يكون الآلهة قد شغلوا زمناً عن الأمر بالفضائل ولم يهتموا إلا بشعائرهم الدينية ، وهذا منقص لشئونهم ، حاط بعظمتهم مما لم يشعر به المصريون يوماً واحداً

(يتبع)

محمد غلاب

(١) أنظر صفحة ٤٣ من كتاب « تاريخ مصر من أقدم عصورها » « هانرى بريستيد » . (٢) راجع صفحتى ٤٣ و ٤٤ من الكتاب المذكور